آراء الادباء

في باء المضارعة العاميَّة

نظرٌ للاب هنري لامنس اليسوعي

طلبنا من قرائنا الكرام ان يبدوا رأيهم في الباء التي يُدخلها العامَّة على المضارعة فاجابنا كثيرون باجوبة من شأنها ان تظهر للعلماء الاجانب ان الشرقيين يحسنون الخوض في مضمار المباحث اللغويَّة ويجارون الغربيين في فكّ المعضلات

وما كنَّا نحن لنعود الى هذه المسئلة فنبتّ فيها حكمًا فصلًا لولا كتاب حديث جليل الفائدة وضعهُ في هذا الصدد احد كبار المستشرقين الالمانيين الدكتور جرج كيفايز (١. والحق يقال ان مصنّف هذا الكتاب لم يألُ جهدًا في التنقيب عن باء المضارعة وعن المباحث اللغويَّة المنوطة بها. واليه استندنا في الملاحظات الآتية التي ندوّنها لفائدة الجمهور فنقول:

لا يمكن الوقوف على اصل باء المضارعة عند العامَّة الَّا اذا عرفنا اولًا موقعها الجغرافي اعني البلاد التي شاعت فيها هذه الباء العاميَّة ولم تزل. فانَّ حلّ المشكل متوقف على هذه المعرفة

دخول الباء على المضارع في لهجة العامَّة لواسع النطاق جدًّا فترى استعمالها شائعًا في كل انحاء الشام شمالًا وجنوبًا ثمَّ في مصر السفلى وفي الصعيد. وكذلك يستعملها اهل السودان المصريّ وقبائل بوربر العربيَّة واهل اليمن. امَّا بقيَّة جزيرة العرب فالامر لا يزال مبهمًا لم يتحققهُ العلماء (٢ والارجح انَّ اهل ما بين النهرين يجهلون استعمال هذه الباء العاميَّة

فممَّا سبق يظهر ان استعمال هذه الباء منتشر في بلاد واسعة. بل ينتج عن سعة امتدادها انَّ اصلها يرتقي الى شعب او قبائل كانت في غابر الزمان تسكن في مكان

---

١) واسم الكتاب في اصلهِ الالماني Die arabische Verbalpartikel b (m), *Marburg*, 1900, SS. 54

٢) راجع الافادات التي جمعها في هذا المعنى الدكتور كيفايز في كتابه ص ٣٠ و ٣١

واحد مجتمعة الكلمة ثمّ انشقّت عصاهم فتبدّدوا في انحاء شتّى فنقلوا خواصّ لغتهم الى حيث بلغ ملكهم

ورأي الدكتور كمپفاير انّ هذه القبائل هي القبائل اليمنيّة فانّ التاريخ يفيدنا انها امتدّت في اكثر البلاد التي شاع فيها استعمال هذه الباء العاميّة (١

ولكن إن صحّ أنّ اصل هذه الباء من اليمن أُترى يبيّن ذلك اشتقاقها ومعناها. كلّا واغًا هذا دليل يمكن الاستدلال به على القول الصواب وينكب عن الآراء الضعيفة السّند. وهاك مثلًا يظهر لك صحّة قولنا: ان بعضاً من مكاتبينا زعموا انّ الباء العاميّة منحوتة عن « بدّي » ولكن هذه اللفظة دارجة في لغة اهل الشام فقط (٢ فكيف شاع اذن استعمال باء المضارعة في بلاد لا يعرف اهلها كلمة « بدّي ». فيتحتّم البحث عن اصل آخر لهذه الباء.

ولكن هلمّ نفحص آراء مُكاتبينا الافاضل في اصل هذه الباء ثمّ نضيف اليها ما يلوح للمستشرقين الاوربيين من هذا القبيل لعلّنا نتوفق بذلك الى جادّة الصواب

والرأي الاوّل الذي ارتآهُ البعض في اصل الباء العاميّة انها كحرف جرّ قُدّم على الفعل. وهو رأي سپيتا بك (Spitta-bey) في كتاب لهُ عن لغة مصر العاميّة طُبع في ليبسيك (ص ٢٠٣) يوافقهُ رأي من زعم انّ الباء هنا « للقسم توكيدًا » وكلاهما رأي ضعيف يردُّهُ الانتقاد لما فيهِ من التكلّف الظاهر (راجع ما كتبهُ الاب انستاس الكرملي في المشرق ٣: ٤١٥). لاسيّما انّ مثل هذه الحروف لا تدخل عادةً على الفعل

الرأي الثاني ذكرهُ الاب انستاس على طريقة الحدس (المشرق ٣: ٤١٧) هو انّ الباء كانت متصلة بلفظة بمعنى « وقت او آن » كما يقول اهل بغداد « قَيكْتُب » او « قَتَيكْتُب » بمعنى « بهذا الوقت يكتب ». ولكن ما هو هذا الاسم او الظرف الذي بقي منهُ حرف الباء او أُبدل احد حروفهِ بالباء. ذلك امرٌ صعبٌ حاول حضرتهُ فكّ

---

١) راجع كتاب الدكتور كمپفاير ص ٣٢ ومجلّة المشرق ٣: ٦٨٧ و ٦٨٩

٢) راجع كتاب المعلم الفاضل يوسف حرفوش المعنون (Drogman arabe, p.46). وفي هذه المناسبة يحسن بنا ان نذكر ما اثنى بهِ على مؤلف هذا الكتاب العلماء الاوريّون. فان الدكتور كمپفاير يدعوهُ : « رجلًا محقّقًا مدقّقًا واقفًا على اسرار اللغة العاميّة »

مشكلة دون ان يقنعنا بالتمام (١ . لا سيّما ان جهل اهل العراق وما بين النهرين يجهلون استعمال هذه الباء فلم تبقَ في لسانهم أثرًا

وقد سعى كثير من العلما ان يعلّلوا باء المضارعة باشتقاقها من « عمّال » وهو رأي الاستاذ الفاضل الدكتور فُلرس (Vollers) في احدى المجلات . WZKM) (1892, p 171 قال انّ « عمّال » اختُصرت اولًا بقولهم « عمّ » ثمّ بحرف الميم . ثمّ قلبت الميم باء . وهذا القول لا ينافي قواعد علم الاشتقاق الّا انهُ بعيدٌ لا نظنّهُ يطابق لواقع الحال . والارجح انّ « الباء » و« عمّال » لفظتان جاريتان على لسان القوم دون علاقة بينهما

وقال غيرهُ وهو رأي الفاضلين الاب خليل اده وكنشاير دولة ايطاليا الجليلة يوسف كوركيس (راجع المشرق ٣ : ٣٧٧) انّ هذه الباء ليست مشتقّة من « عمّال » لكن هي حرف الباء اللاحق بهذه الكلمة في قولهم « عُمّال باكتب » بدلًا من « انا عامل بالكتابة » وعلى هذا الرأي أُهملت « عمّال » فبقيت الباء . ولنا على هذا القول اعتراضٌ وهو انّ باء الجرّ لا تعمل في الفعل بل في الاسم فقط . فليست هي اذن باء الجرّ (٢ . كما انها ليست باء التوكيد كما ارتأى الاديب جرجي افندي عطيّة (المشرق

---

١) وقد عاد الاب انستاس الى رأيه هذا في كتاب ارسلهُ الينا قال فيه : « انّ الظرف الذي نقلت منهُ الباء هو لفظة « آن » فقالوا في مثل « الآن اكتب والآن اروح » « آن أكتب وآن أروح » ثمّ « نَ كْتُب ونَ رُوح » ولكي تُميّز هذه اللفظة من جميع المتكلمين ابدلوا النون بالميم لمقاربتها في اللفظ وقالوا : « مَ كْتُب » وقد قيل انّ الدماشقة يقولون ذلك الى يومنا هذا غير انهم يسكنون الاول كما هو مألوف عادتهم فيقولون « مْكتُب » . ثمّ ابدل البعض الميم بالباء فقالوا في ذلك « بَكتَب وبروح » وابدال الميم بالباء كثير في العربيّة لمقاربة مخرجيهما . . . »

٢) قال حضرة الاب انستاس في كتابه تاريخهُ متصف آب : « طالعتُ في المشرق (٣ : ٣٧٧) الرأي القائل : « ان الباء متعلقة بمحذوف كثيرًا ما يظهر وهو « عمّال » فيقولون : « عمّال باكتب » اي انا عامل بالكتابة . فنقول : ان نقل لفظة « عامل » الى « عمّال » من المكن . لكن ان كان هذا هو متعلّق المحذوف فمن الواجب ان يُقال مثلًا عوضًا « باكتب » « بالكتابة » وان قلت مثلًا ليست اللفظة المقدّرة او المحذوفة هي « عامل » او « عمّال » بل هي فعل بمعناها : اي : « أعمل بأن اكتب » قلنا : لقد ذهب المقصود من المعنى لان لفظة الكتابة مثلًا من ذاتها تدل على هذا العمل فاي حاجة بعدئذٍ في تكثير الالفاظ على ما لا طائل تحتها . وبالاخص

٣:٤١٨) على مثال قولهم « بحسبك درهم » اي حسبُك لانَّ بين الجملتين بوناً عظيماً . وذلك انَّ « حسب » اسم فعل ليس لهُ خواصّ الفعل من الاقتران باحد الازمنة . والباء في دخولها على المضارع تخصُّهُ بالزمان

ولا نظنُّ انَّ احد العلماء يوافق جناب الكاتب المذكور بقولهِ « انهُ يمكن ان نعتبر هذه الباء مزيدةً على انَّ المصدريَّة . . فيكون على ذلك الاصل في « بيقول » « بان يقول » . ولا بقولهِ « انَّ هذه الباء مقتطعة من « بذا » حرف جرّ واسم اشارة » . لانَّ كلَّ ذلك تخمين لا يظهر سندهُ

وتزيد على هذه الاراء رأياً جديداً عرضهُ علينا حضرة القس الفاضل جرجس منش الحلبيّ في مقالةٍ حسنة لم يسمح لنا ضيق المكان باثباتها (١ وهو انَّ الباء متلوبة عن حروف المضارعة « أنيتُ » . لكنَّنا لا نفهم كيف أُبدلت هذه الباء من حروف المضارعة وهي تدخل عليها فيقولون « بأقتل » او بحذف الهمزة « بَقتُل » ثمَّ يقولون : « بْقُتْل بْيقْتل بْنقْتل » مع ثبوت حروف المضارعة

ومن الآراء المنبوذة رأي الدكتور فَرْمُند (Wahrmund) الذي زعم انَّ هذه الباء اصلها من الفارسيَّة (٢ . الَّا انَّ الدكتور كيفنير (ص ١٧) ابطل زعمهُ هذا وبيَّن لهُ انَّ هذه الباء من خواصّ العربيَّة الدارجة بين العامَّة لا علاقة لها مع الفارسيَّة . والدليل على ذلك انَّ القبائل المجاورة لبلاد العجم في العراق وما بين النهرين لا تعرف هذه الباء

امَّا الرأي الاخير الذي يرجحهُ كثيرون من العلماء فهو انَّ هذه الباء منحوتة عن الفعل

لمَّا نعرف ان العامة تحبُّ ان تعبر عن افكارها بعبارات مختصرة . ومن ذلك وقوع الاختزال في جميع الفاظها

١) وقد بيَّنَّ حضرتهُ انَّ هذه الباء استُعملت في مواطن عديدة كالطلب والنفي والوعد والوعيد والريب والتوقُّع والتأكيد والشرط وضرب على كل ذلك امثالاً . ثمَّ وجَّه هذه الباء الى تعاليل ثلاثة على حسب مواطن وقوع الباء فتكون على رأيهِ امَّا منحوتة من « بدّي » بدلاً من « بودّي » . واما باء التعدية « عمّال باكل » اي « عمّال بما آكل » وقد مرَّ ذكر مذهبي الرأيين . والرأي الثالث هو الذي نشير اليهِ

٢) راجع كتابهُ في اللغة العربيَّة العاميَّة (Manuel pratique de l'arabe moderne, p. 2 ed. 1880, n. 89)

ولكن لم يتّفق العلماء على تعيين هذا الفعل. فمنهم من يقول انهُ فعل « بدأ » وهو رأي حضرة الخوري الياس زيادة (١ (م ٣ : ٤٧٧). ومنهم من يريد انهُ فعل « بات » وقد دافع عن هذا الرأي حضرة اللغوي الفاضل الاب جبرائيل رزق (م ٣ : ٥٥٨) وأيّد قولهُ بامثال تقرّب الامر وتجعلهُ جديرًا بالاعتبار. ومنهم من يفضل فعل « ابي يبي » بمعنى اراد. وهو فعلٌ كنّا نجهل وجودهُ

لكنَّ السياح الاوربيين لسانٌ واحد في تقرير وجود هذا الفعل في انحاء كثيرة. فان العلّامة سوسين (Socin) اثبت استعمالهُ في بلاد نجد. والمسيو وتشتين (Wetzstein) تحقّق وجودهُ في دمشق. وهو مستعمل في حضرموت واليمن كما روى الكنت دي لندبرغ (٢ والدكتور شتومه (Stumme) دلّ عليه في تأليفهِ عن لغة العامّة في تونس وطرابلس الغرب. وقد وجدهُ في المغرب الدكتور كيفاير (ص ٨) واثبت ذلك بادلة حسنة. امّا اعتراض المعلم نعيم افندي صوايا لهذا الرأي (م ٣ : ٤١٧) فقد اجاب عليهِ حضرة الاب انستاس بما يلي :

طالعتُ ما كتبهُ حضرة المعلم الفاضل نعيم افندي صوايا وما اورده نقلًا عن المقتطف. فرأيتُ فيهِ ما يمكن ان يُقوّم ذاك الرأي بالوجه الآتي : ان الفعل الذي هو بمعنى اراد في قول عرب المتزة : « انا أبي اروح » هو من بَأَى يَبْأَى على موجب الصرفيين (لانهُ من مهموز العين) وبأى يبئي على انهُ مبدلٌ من بعى يبعي وهذا عن بغى يبغي بالنون. ثمَّ حذفوا اخيرًا الهمزة طلبًا للعفّة فقالوا : « بَى يَبِي » واذا تمهّد ذلك يسهل عليك معنى قول المتريّين : « انا ابي اروح معك. وهذا الّي تبيو. واس كُنّا نبي لكلا . . . وبى نسافر نحدوهُ »

اما حذف الهمزة في الكلام العامي والفصيح فلا حاجة الى التصريح بهِ لكثرتهِ . . . فحسبك ان تأخذ القاموس مثلًا بيدك وتنظر باب الهمزة ثمَّ تقابلها بباقي الواو والياء فترى العجب من ذلك

على انهُ يمكن ان يؤيد مذهب الكونت بالوجه الآتي : ان اصل « أَبَى يَبِي » أبى يَأْبِي الذي هو

---

١) راجع تأليفهُ Arabica III 102

٢) كتب لنا حضرة الاب انستاس في هذا الرأي ما حرفهُ : واما الرأي القائل : « ان الباء مقطوعة من فعل « بدأ » فيكون معنى « با كتب » ابدأ اكتب فهو دون الرأي الاول يريد رأي من يقول انَّ الباء متعلّقة بمحذوف كقولهم « عمّال باكتب . لان العمل في المذهب الاول يُقيّد المعنى بقيد الحالية وهو المقصود من ادخال الباء على الفعل. امّا « البدء » فيدل على الشروع لا غير. والحال انك ان قلت « با كتب » فليس مرادك الشروع بالكتابة بل انك في حالة الكتابة

مقلوب آب يَزوب الذي يقول فيه الأزديُّون آب يَئيب بمعنى قصد يقصد كما قال الفصحاء من العرب في « آن يَئين » ترقيق حان يحين: « انى يَأني » (ومنهُ اشتقاق الإنو والإني والاناء بمعنى الوقت). وهذا الرأي (رأي القلب) وان لم يصرّح به اصحاب المعاجم فان اللغويين اجمعوا به فنهم ابو عُبيد في كتاب الغريب المصنَّف في باب المقلوب. ومنهم ايضاً صاحب المزهر (١ : ٢٢٢ في السطر الاول). ثمَّ خُفّفت همزة يأبي بحذفها فصارت يَبي كما رأيت فُويق هذا. وكما ان القصد والارادة متقاربا المعنى لم يعسر نقل معنى الاول الى معنى الثاني

اما قول المعلم الفاضل صوايا افندي: « ولا اظنُّهُ مصيباً لاسيما وقد سمعت هذه الباء مع مضارع ابى » فلا يعني شيئاً. لانهم لمَّا اخرجوا معنى القصد الى الارادة ومعنى الارادة الى مجرَّد معنى المقاربة اصبح ذلك اللفظ بمنزلة الاداة تستعمل للحالية لا غير بدون اعتبار الاصل. وعليه فقد جاز بعد ذلك استعمالها مع كل فعل وان كان مناهُ الارادة. واما عدم اجتماعها مع بُدّي فهو لاجتناب لفظ الباء المتكرّرة التي تثقل على اللسان

فمن هذه النبذة ترى انَّ حضرة اللغوي المحقّق الاب انستاس ينحاز الى رأي العلماء الاوربيين. وكان في مقالة سابقة (م ٣ : ٤١٦) آثر على « أبى » فعلاً « آخر هو « بأى يبني » بمعنى اراد ترقيق « بنى » وهو رأي ارتآهُ قبلهُ العلاَّمة وتشتين (Wetzstein)

امَّا نحن فمع تفضيلنا قول العلماء بان الباء العاميَّة مقطوعة عن « ابي يبي » لا نحبُّ ان نجزم بهذا الامر حكماً

وخلاصة القول انَّ الباء العاميَّة كما سبق كانت شائعة في الاقطار التي توطَّنتها القبائل اليمنيَّة. ولعلَّ هذه القبائل نقلتها الى العربيَّة من لغة سابقة كانت تتكلَّمُ بها في جنوبي جزيرة العرب. ومما يزيد على رجحان هذا الرأي اننا نجد هذه الباء في اللغة الحميريَّة كحرف يناسب باء العاميَّة العربيَّة ويقدَّم على المضارع: ذلك قول الدكتور كيغماير في كتابه (ص ٣٨) يؤيدهُ بملاحظات شتَّى لغويَّة يسندها الى لغتي حمير والحبشة ولا يسعنا ان نخوض في البحث عنها. وانما نرجح القول انَّ حلَّ مشكل اصل الباء لا يتم الا بدرس لغة جنوبي بلاد العرب. فكل هذه الفوائد تجعل كتاب الدكتور كيغماير ذا شأن وخطر فنشير الى قرَّائنا الذين يعرفون اللغة الالمانيَّة ان يطالعوا هذا التصنيف لعلَّهم بمراجعته يجدون ما يرشدهم وإيَّانا الى الصواب. ونثني في ختام هذه النبذة على همَّة مكاتبينا الذين ساعدونا في البحث عن احد مشاكل لغتنا العاميَّة ونتمنَّى من فضلهم ان يطرقوا باباً آخر مثلهُ ولهم منَّا سلفاً الشكر العميم